

من تاريخ اللغة العربية^(١)

حوافز التدوين والترجمة

الدكتور مسعود بوبو

سبقت الإشارة (في بحث سابق) إلى أن أول ما اتجه العرب إلى تدوينه كان القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، فالمغازي والأخبار والأنساب والمجموعات الشعرية وكتب التفسير... ومع الاستقرار الذي بدأ المجتمع العربي الإسلامي يعرفه في أعقاب الفتوحات، راحت حركة التدوين تتسع وتتنامى.

وكان من أسباب تناميها توافر أدوات الكتابة والوراقة توافراً يشجع الناس للإقبال على الكتابة والتدوين من غير تردد أو تخوف.

ويبدو للمتأمل في هذه الحقبة الانتقالية وكأن العرب والعربية ينتقلان من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية، ومن حال السماع والحفظ في الذواكر والصدور إلى حال التدوين والتأسيس لنهضة علمية غنية، كان مما قوى حركة التدوين وعجل خطواتها الحوافز الآتية:

(١) نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد ٣٤/٣٣ (١٩٨٩)، والثانية في العدد ٣٨/٣٧ (١٩٩٠)، والثالثة في العدد ٤٨/٤٧ (١٩٩٣)، والرابعة في العدد ٥٠/٤٩ (١٩٩٤)، والخامسة في العدد ٥١/٥٠ (١٩٩٥)، والسادسة في العدد ٥٦/٥٥ (١٩٩٦).

١- الرغبة في المحافظة على التراث الديني والأدبي بعدما رأى السلف أن كثيراً من حفظة القرآن الكريم ورواة الحديث النبوي قد قضوا في الجهاد وحروب الردة، أو بلوغ الأجل.. وأن مخالطة الأعاجم قد أفسدت الألسنة، فخشي أولو الأمر من عواقب النسيان ومن شيوع اللحن في اللغة. وعلى هذه الصورة كان حال الشعر الذي ضاع أكثره إبان الفتوحات، وتوقفت أسواقه ومزاجته وإنشاده في ما يشبه الكساد الشعري بالقياس إلى الماضي. ومن ذا الذي ينسى قوله أبي عمر العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير" (١).

ويعزو هذه الفكرة نفسها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"كان الشعر علم قوم لم يكن لديهم علم أصبح منه"، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العوالب وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا ذلك وذهب عليهم منه كثير (٢)..

هذا الخوف على التراث الديني والأدبي أقلق الجيل الأول من علمائنا وحفزهم على المسارعة إلى صونه بالتدوين والحفظ.

٢- يمكن القول، بشيء من التخصيص، إن الحافظ المباشر الذي كان أبعد أثراً في تاريخ اللغة العربية هو خدمة العقيدة والنص الديني، فهذا الحافظ الداخلي الخاص كان يهدف إلى تفسير القرآن والحديث الشريف، وهو الذي دفع بحركة التدوين قدماً إلى الإمام، وعجل من إقبال الناس عليها مما أدى إلى نشأة "علوم القرآن"، وتأسيساً عليها واقتداءً بها نشأت "علوم العربية" من لغة ونحو وصرف وبلاغة وعروض وما شابه ذلك.. حتى لقد بدت تلك العلوم كلها عند العرب متأثرة بمنهج

تدوين الحديث وضبط مصطلحه في الدقة وحسن التحري والتوثيق في رجال السند. وعلى غرار ذلك كان ينهج المؤرخون الأوائل بإسناد الأخبار والروايات إلى منابعها.. وقد بدا هذا التأثير واضحاً بصورة خاصة في طرائق جمع اللغة وتدوينها وتصنيف المعاجم ودواوين الشعر وكتب المجالس والأمالى. وجلي أن هذا كله كان معواناً على المزيد من النسخ والتوريق والتصنيف... إلى غير ذلك مما ينطوي عليه هذا النشاط من معنى ومظهر.

٣- حافز خارجي يتجلى في اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتنامي الحاجة إلى مصادر ثقافية تفيد منها في تنظيم أمورها الاجتماعية والتشريعية والإدارية، وفي السياسة والاقتصاد وأمور الناس المختلفة. وهنا اتجه التدوين إلى لونين من النشاط: أحدهما تركّز على العناية بالدواوين الداخلية كديوان الجيش والأعطيات والرسائل وغيرها ممّا كُتِب أصلاً باللغة العربية. والنشاط الآخر اتجه إلى الدواوين التي كانت موجودة، أو اقتضى التطور إيجادها في البلاد المفتوحة، فتعزّزت بهذا منزلة العربية في الداخل والخارج، انتشاراً أو تدويناً.

٤- الحافز الرابع كان حركة التطور التاريخي والنمو الفكري في المجتمع العربي الإسلامي، وبوجه خاص، بعد أن دخل الإسلام عناصر أعجبية لها ثقافتها وتأثيرها في هذه الحركة الحضارية الجديدة، بالإضافة إلى الاشتغال بعلوم أخرى، كالعلوم الطبيعية، وفنون الأدب، وابتداء التعريب وترجمة المعارف والعلوم من اللغات المجاورة، في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء وما شابهها... وإذا كانت تلك المدونات المبكرة مباحث مفردة تنحصر في الصحف والأوراق التي لا تضاهي أو تقارب ما نعرفه من الكتب بمفهومها العام اليوم، فإن القرن الثاني قد شهد منذ منتصفه وحتى مطلع القرن الثالث الهجري تطوراً أبعد في التدوين، وعرف الكتب المنظمة المبوبة الكاملة.. أما الكتيبات الأولى، أو الرسائل بأنّها، وإن ضاع معظمها، ممّا قيّض لعلماء القرن الثالث للهجرة فرصة الاطلاع على

مضموناتها وتمثل محتوياتها، ثم إذابتها في تضاعيف كتبهم، ولولا ذلك لكان أمرها خفياً علينا اليوم.

الترجمة والمترجمون:

إلى جانب العوامل الحيوية السابقة كان للترجمة والمترجمين دور فعال وإسهام كبير في رقد العربية وإغنائها بألوان من المعارف والعلوم منذ بدء الفتوحات الإسلامية، فقد عكف القوم على تفحص التراث المعرفي للأمم المجاورة، التي كانت تجربتها الحضارية أطول وأقدم من تجربة العرب، وراحوا يتخيرون منها ما يوافق مبادئهم وقيمهم، أو يسد نقصاً في معارفهم، حتى احتلت حركة الترجمة منزلة مرموقة في الحياة الفكرية والعلمية زمن العباسيين، وحتى قيل إن الخليفة المأمون كان يمنح المترجم زنة الكتاب الذي ترجمه ذهباً. وكان يضمّن معاهداته أو كتب الأمان التي يكتبها شرطاً ينص فيه على أن ترسل إليه نسخ نفائس الكتب لنقلها إلى العربية.

لقد كانت مراكز الترجمة في حرّان وبغداد وجنديسابور والاسكندرية منارات لازدهار الحركة الثقافية واليقظة الفكرية التي انطلقت إشعاعاتها من مدائن العلوم في دولة الخلافة الإسلامية، وانتشرت في أرجائها لتتمثل في الحضارة العربية الإسلامية التي شمخت وبلغت شأواً عظيماً تجاوزت به حضارات كانت -يومئذٍ- ملء الأسماع والأبصار^(٣).

ويستخلص من مصادر التراث العربي أن أول المحاولات التي أقدم عليها العرب في ميدان الترجمة كانت في زمن الأمويين، وترتبط باسم خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٩٠هـ)، الذي درس الكيمياء (الصنعة)، والطب، والفلك. يقول ابن النديم في ذلك (تحت عنوان: أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي): اصطفن القديم، ونقل الخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها^(٤).

كما يُذكر في هذا الباب اسم يعدّ من أقدم المترجمين إلى العربية، هو ماسرجويه أو "ماسرجيس"، كما في الفهرست. كان يهودي المذهب سريانياً، طبيب بالبصرة، تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب "أهرن بن أعين" القس إلى العربية (على الأرجح أيام مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ)، ووجد الكتاب الخليفة عمر ابن عبد العزيز في خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه في مصلاه، فاستخار الله في إخراجه إلى الناس وبثّه في أيديهم^(٥). والكتاب المذكور كُنْاش (أي المرجع الجامع) فاضل من أفضل الكُنْاشيش القديمة^(٦).

ويبدو أن الترجمة التي بدأت في العصر الأموي قد اتجهت إلى الطب والفلك، ومن الخسران أنه لم يصل إلينا شيء من ذلك حتى بعد وفاة خالد بن يزيد بن معاوية، سوى ما ذكر من أن كتاب "مفتاح النجوم" المنسوب إلى هرمس قد نقل إلى العربية سنة ١٢٥هـ، وبعد هذا تُذكر بواكير الترجمات العربية المعروفة عن الأعمال الهندية واليونانية زمن الخليفة المنصور (ت ١٥٨هـ)، في ميادين الطب والفلك والرياضيات^(٧). ومن ذلك أن أقدم ترجمة عربية لكتاب المجسطي لبطليموس ظهرت نحو ١٧٥هـ^(٨).

وبصفة عامة كانت الترجمة محدودة أيام الأمويين، كما هي البدايات غالباً، لكن هذه الحركة اتسعت ونشطت في العصر العباسي نشاطاً ملحوظاً بفعل مجموعة من المؤثرات كان في طليعتها التفاعل الثقافي الذي ولّده تلاقي روافد الحضارات اليونانية والفارسية والهندية في ظل وجود للفكر الإسلامي مع اتساع رقعة الدولة.. مما أشعر العالم الإسلامي بالحاجة الملحة إلى معرفة الفكر الإنساني بكل مظاهره وأبعاده المعروفة.. وبدأت الضرورة تفرض نفسها لنقل المعارف الأجنبية إلى الفكر العربي^(٩). وهكذا بتنامي الشعور بالحاجة إلى الوقوف على مصادر المعرفة القيمة عند تلك الأمم المجاورة التي دخلها العرب، أو دخل أبناؤها في الإسلام، وتنامت معه الحاجة إلى إشراق الدولة على ما يمكن أن نسميه تنظيم الثقافة وتوجيهها وجهة الصلاح والخير

تفادياً لعقائيل الفوضى والاضطراب بعد ما سادت اللغة العربية في الأقاليم التي فتحها المسلمون وبدأت مؤهلة لاستيعاب العلوم المجاورة، وبعد ما اتسع مجال الترجمة وكثرت أعداد المشتغلين بها طلباً للعلم، أو انتصاراً للمذاهب والعقائد، أو استكمالاً لأدوات الجدل والمنطق والحجاج، أو طموحاً إلى المكانة والشهرة إلى ما هناك من مظاهر "الثقافة" أو الغليان الثقافي.

ومما عزز حركة الترجمة ودعم نشاطها مؤازرة سلطة الخلافة العباسية للمترجمين، مادياً ومعنوياً، وإسهامها باستحضار المخطوطات الثمينة بكل وسيلة لتتم ترجمتها برعاية "رسمية" وفق خطة مدروسة تهدف إلى نقل الكتب المختلفة في الطب والمنطق والفلك والكيمياء والحساب والهندسة والفلسفة والحكمة وأمثالها من فروع العلم التي راحت تجذب الناس وتحظى باهتمامهم، أو تلقى في نفوسهم الرضى والقبول.

وكان في صدارة المترجمين الرواد عبد الله بن المقفّع (ت ١٤٢هـ)، الفارسي الأصل، قال القفطي: "وهو أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، ترجم له كتب أرسطو طاليس المنطقية الثلاثة وهي: كتاب قاطيغورياس (المقولات)، وكتاب باري أرميناس (العبارة)، وكتاب أنالوطيقا (البرهان).. كما ترجم الكتاب الهندي المشهور "كليلة ودمنة" (١٠).

ووصل إلى بلاط الخليفة المنصور هذا الرجل من الهند عارف بكتاب الهندود المشهور باسم "السند هند"، الذي ترجم بعض القدماء عنوانه بعبارة "الدهر الداهر"، في علم النجامة.. فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى العربية، وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، فتولّى ذلك محمد بن إبراهيم الغزاري (ت نحو ١٨٠هـ)، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون "السند هند الكبير"، وكان أهل ذلك الزمان أكثر من يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ)، فاخصره له أبو جعفر

محمد بن موسى الخوارزمي (ت بعد ٢٣٢ هـ)، وعمل منه زيجه (والزيج: كل كتاب مشهور يتضمن جداول فلكية يعرف منها سير النجوم ويستخرج بوساطتها التقويم سنة سنة)، المشهور ببلاد الإسلام^(١١).

ومن الأمانة العلمية أن نورد أسماء جملة المترجمين هنا، إنصافاً للحقيقة والتاريخ، لكن حشد تلك الأسماء مغفلة ما أسند إليها من أعمال في الترجمة، أو مما أنجزته سيبدو أمراً فيه تزيّد وإسهاب. فابن النديم، مثلاً، ذكر في الفهرست تحت عنوان "أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي"، نحو ستين مترجماً، من اليونانية والفارسية والهندية، لم يقرن إلا قليلاً منهم ببعض ما أنجزوه، فضلاً عن إغفاله ذكر سني وفياتهم وأمكنة نشاطهم وما شابه ذلك^(١٢)، وكان هناك إقراراً غير معلن بضالة مشاركتهم نظراءهم ما بذلوه من جهد وما قدموه من نتاج فعلي للترجمة. وأما من كان لهم مشاركة مقبولة أو إسهام معروف في هذا النشاط فيمكن أن نذكر منهم أسرة بختيشوع (أسرة من السريان النساطرة)، التي اشتهر منها ثلاثة أطباء أولهم:

جورجيس بن بختيشوع الحمديسابوري، رئيس أطباء جنديسابور، وقد استقدمه منها إلى بغداد الخليفة المنصور، وأعجب بحسن منطقه عند وصوله، إذ دعا له بالفارسية والعربية إلى أن توفي (جورجيس) سنة ١٥٢ هـ.

وثانيهم: ابنه بختيشوع الذي استقدمه الخليفة المهدي (ت ١٦٩ هـ)، من جنديسابور ليحل محل أبيه جورجيس، فظل في خدمته وخدمة الهادي والرشد إلى أن توفي.

وثالثهم: ابنه جبريل (جبرائيل) الذي صار طبيب الخليفة هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ)، وظل على ذلك إلى زمن الأمين والمأمون حتى توفي في خلافته سنة ٢١٣ هـ^(١٣). وكان لهؤلاء "البخاشعة" أثرهم الذي استمر في الطب والترجمة حتى زمن المتوكل (ت ٢٤٧ هـ).

وممن شاركوا في الترجمة يوحنا بن البطريق الترجمان (أبو زكريا يوحنا بن يوسف الحارث بن البطريق)، المعروف بيوحنا القس، مولى المأمون، وكان أميناً على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، بكى اللسان (أَلَكَن) في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، وهو تولى ترجمة كتب أرسطوطاليس وبقرات من اليونانية إلى العربية^(١٤)، توفي بين ١٨٠ و ١٩١هـ.

ويذكر هنا أيضاً الفضل بن نوبخت أبو سهل الفارسي الأصل الذي ولّاه الرشيد القيام بخزانة كتب الحكمة، وكان ينقل من الفارسي إلى العربي ما يجده من كتب الحكمة الفارسية، ومعه في علمه وكتبه على كتب الفرس^(١٥).

كما يذكر بحق يوحنا بن ماسويه، الذي ولّاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم^(١٦)؟! ووضع أميناً على الترجمة، ورتب له كُتاباً حذافاً يكتبون بين يديه^(١٧).

ويرتبط اسم يوحنا هذا بنضج تجربة الترجمة وبلوغها مرحلة متقدمة من التنظيم، وذلك بإنشاء أهم مركز لها هو "بيت الحكمة"، الذي تحول في زمن المأمون إلى مقر حقيقي للبحث والترجمة بعد أن تولى مهمة أول رئيس له يوحنا بن ماسويه المذكور^(١٨). وذكره صاحب الفهرست فقال: "هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، كان فاضلاً متقدماً عند الملوك، عالماً مصنفاً، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل"^(١٩). توفي في خلافة المتوكل سنة ٢٤٣هـ.

ومن أبرز المترجمين في هذه لمرحلة حنين بن اسحاق العبادي^(٢٠)، الطبيب الكحال والمترجم المشهور، وكان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه في الطب، تعلم اليونانية في الاسكندرية، وأتقن إلى جانبها العربية والفارسية، ومن هنا برع في النقل والترجمة.

ولد ببغداد (وقيل في الحيرة)، سنة ١٩٤هـ، وزار بلاد الشام والروم وفارس. قال القفطي:

"وقعد في جملة المترجمين لكتب الحكمة واستخرجها إلى السريان وإلى العربية، وكان فصيحاً في اللسان اليوناني وفي اللسان العربي" (٢١).

بارعاً شاعراً خطيباً لساناً، ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد (٢٢). [!] حتى برع في اللسان العربي وأدخل كتاب العين بغداد، واختير للترجمة واثمن عليها، وكان المتخير له المتوكل على الله، وجعل له كتاباً نحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا كاصطف بن بسيل (٢٣)، وموسى بن خالد الترجماني، ويحيى بن هارون (٢٤).

وإبان عمله سافر حنين إلى بلاد الروم لجلب المخطوطات مما قوى لغته اليونانية. وكانت حصيلة ما ترجمه إلى العربية خمسة وثلاثين كتاباً على ما تذكر بعض المراجع (٢٥)، ونحو خمسين كتاباً ورسالة في مختلف العلوم والموضوعات (٢٦). وتوفي سنة ٢٦٠هـ أو ٢٦٤هـ (٢٧).

لقد كان حنين أعظم متبحر في كل تاريخ حركة الترجمة في الإسلام، وأحد أعلام الفكر في عصره، وأما نهج الترجمة الذي بدأه أسلافه فقد طوره حنين حين وضعه على أساس علمي متين، "وله الفضل الكبير في توحيد التعابير والمصطلحات الطبية وبخاصة في مجال العين بعد أن كانت متباينة ومختلفة عند من سبقه" (٢٧). وكانت مجموعة الدارسين التي تعمل تحت إشرافه تضم بالإضافة إلى من سبق ذكرهم - ابنه اسحاق (كان في نجار أبيه في الفضل وصحة النقل من الترجمة اليونانية والسريانية إلى العربية، وكان فصيحاً بالعربية يزيد على أبيه في ذلك) (٢٨)، وابن أخته حبش بن الحسن الأعسم (٢٩)، وكان عمله على قدر كبير من التنظيم، موزعاً على المترجمين والمراجعين والمصححين والنساخ والمجلدين. وأما ترجمات حنين الطبية والفلسفية فقد تمت طبقاً لأعلى المعايير النقد والتحليل الفيلولوجي. وثمة ملاحظة في سيرته الذاتية تدلنا على أنه كان، قبل أن يترجم عملاً يونانياً، يعمد في غالب الأحيان إلى مقارنة

مخطوطات عديدة حتى يتوصل إلى تثبيت نص أساسي على نحو متين، ولم تكن ترجماته تشتمل فقط على كل المؤلفات الطبية من جالينوس الطبيب والفيلسوف الأسكندراني، بل وتشتمل أيضاً على نصوص جالينوس التي أعاد فيها كتابة مؤلفات أفلاطون وشروحا، مثل كتاب: السوفسطائيين برمنيدس كراتيلوس... إلخ.

وبالإضافة إلى ما سبق ترجم حنين إلى العربية أو السريانية المقولات التالية لأرسطو: المقولات، فن التأويل، وقسماً من أناليطيقا الأولى (القياس) وقسماً من أناليطيقا الثانية (البرهان)، والكون والفساد والميتافيزيك، والنفس، والفيزياء. وفي عدة حالات كان ينقل حنين النص اليوناني لأرسطو إلى اللغة السريانية، ومن ثم كان يتحول إلى العربية على أيّد زملائه.

وبهذه الطريقة تمكن حنين وفريقه أن يترجموا إلى العربية الأعمال الطبية الكاملة التي كتبها كل من أبراط وجالينوس ومؤلفات أرسطو كلها تقريباً، كما إنهم كانوا مسؤولين أيضاً عن معظم الترجمات العربية لمؤلفات أفلاطون^(٣٠).

إن قائمة المترجمين تضم أيضاً فريقاً من الأسماء التي أسهمت في حركة الترجمة إسهاماً لا معدى عن الإقرار به وتقديره، من هؤلاء الفيلسوف الكندي (أبو يوسف يعقوب بن اسحاق)، المشتهر في الملة الإسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية، متخصص بأحكام النجوم، وأحكام سائر العلوم، فيلسوف العوب.. ولم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بمعانة علوم الفلسفة حتى سموه فيلسوفاً غير يعقوب هذا، وله في أكثر العلوم تأليف مشهورة في المصنفات الطوال، ومن الرسائل القصار جملة متعددة.. ترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشكل، ولخص المستصعب، وبسط العويص^(٣١). توفي ببغداد سنة ٢٥٥هـ، على الأرجح.

ومنهم: ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا الصابني الحراني (ت ٢٨٨هـ)، كان أيام المعتضد، وكان يجيد السريانية والعبرية واليونانية، ويحسن النقل إلى العربية

بحق وحسن تعبير. "وقد عده سارتون من أجود المترجمين وكثيراً ما كان ينقل إلى أبناء موسى بن شاكر كتب علماء اليونان، وبخاصة إلى محمد الذي قيل إنه استصحب ثابتاً معه إلى بلاد الروم سعياً وراء الكتب العلمية لنقلها إلى العربية"^(٣٢).

ومنهم: متى بن يونس المنطقي القنّائي أبو بشر (ت بعد ٣٢٠هـ)، نزيل بغداد، عالم بالمنطق، شارح له، مكثر مطيل للكلام، قصده التعليم والتفهيم. وعلى كتبه وشروحه اعتماد هذا الشأن في عصره ومصره، وكان ببغداد في خلافة الرازي، وكان متعمقاً في معرفة اللغة اليونانية وله مناظرة جرت بينه وبين أبي سعيد السيرافي النحوي (ت ٣٦٨هـ).

ذكره محمد بن اسحاق النديم فقال: أبو بشر متى بن يونس من أهل دير قنيّ ممن نشأ في اسكول مرماري (مدرسة مار ماري). ثم ساق جملة من الكتب التي نقلها عن اليونانية^(٣٣)، ولعل أشهرها ترجمته كتاب فن الشعر لأرسطو.

وتابع خطأ متى هذا سنان بن ثابت بن قرة أبو سعيد الحرّاني. كان طبيباً المقتدر، ثم خدم القاهرة. مات ببغداد سنة ٣٣١هـ، بعد أن أسلم، نقل إلى العربية نواميس هرمس والسور والصلوات التي يصلي بها الصابنون، وأصلح كتباً مترجمة^(٣٤).

ومنهم: ابن ناعمة الحمصي (ت نحو ٣٢٠هـ)، الذي ترجم ما ينسب في اللاهوت إلى أرسطو وغيره عن اليونانية وأصلح بعض الترجمات.

وأبو عثمان الدمشقي: (ابن يعقوب) من أهل دمشق أحد النقلة المجيدين^(٣٥).

ومن مشاهير نقلة العلوم في العصر العباسي قسطا بن لوقا البعلبكي، الذي كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً ومنجماً وعالماً بالهندسة والحساب والمنطق.

يقول ابن جليل: "وله في الطب تواليف حسان ككتابه في غلبة الدم، وكتابه في نسبة الأخلاط، وكتابه في الفرق بين النفس والروح، وكتابه في الفرق بين الحيوان والناطق والصامت، وكان في أيام المقتدر"^(٣٦).

ولعل الأرجح أنه كان في زمن المعتمد (ت ٢٧٩هـ)، لأنه عاصر الكندي (فيلسوف الإسلام المتوفى سنة ٢٥٥هـ)، وثابت بن قرّة المتوفى سنة ٢٨٨هـ، ويذهب بعضهم إلى أنه توفي سنة ٢٥٠هـ^(٣٧). وكان زمن بين من وفد إلى بلاد الروم بحثاً عن الكتب العلمية اليونانية، وقد ظفر بثروة كبيرة منها. اجتذبه "سنحاريب" أحد حكام أرمينية، وهناك توفي وأقاموا له قبراً كأعظم ما يقام لكبرائهم السياسيين والدينيين. وكان من أبرز نقلة علوم اليونان وأقدرهم^(٣٨)، فصيحاً في اللغة اليونانية جيد العبارة في العربية^(٣٩).

ومن المترجمين يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي "نزير بغداد، وإليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه. قرأ على أبي بشر متى بن يونس، وعلى أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت ٣٣٩هـ)، وعلى جماعته في وقتهم"^(٤٠). وتوفي في بغداد سنة ٣٦٤هـ.

ومنهم عيسى بن اسحاق بن زرعة بن مرتضى بن زرعة بن يوحنا. فلكي منطقي اشتغل بالطب ونقل من السريانية إلى العربية. ترجم جالينوس (في منافع الأعضاء في جسم الإنسان)، ولد ببغداد وتوفي عام ٣٩٨هـ^(٤١).

ويمكن أن نلمح وجهاً آخر لهذا النشاط في حركة الترجمة يتمثل في تلك القائمة من أسماء المؤلفين الهنود ترجمت كتبهم من غير ذكر مباشر لأسماء مترجميها، من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أو الاستقصاء الطبيب أنكو، والفلكي والطبيب أريكل، والفلكي والطبيب أندي، والمهندس باجر الهندلي، والفلكي والطبيب باكر، والطبيب جاراك، وجبري، وداهر، وراي، والطبيبة روسا، والطبيب شاناق

الهندي، والطبيب منكه الهندي الذي كان طبيب الرشيد الخاص، والذي ترجم كتاب السموم لزميله شاناق إلى الفارسية، ثم ترجمه من الفارسية إلى العربية أبو حاتم البلخي ليحيى بن خالد البرمكي، ثم ترجمه علي بن العباس بن الجوهري مرة أخرى إلى العربية للخليفة المأمون^(٤٢). وهؤلاء جميعاً أو في معظمهم ترجمت كتبهم إلى العربية زمن العباسيين في القرن الثاني للهجرة.

ويذكر إلى جانب هذا أن جهوداً خاصة وجدت طريقها إلى هذه الحركة الثقافية في مبعدة عن رعاية الدولة الرسمية، قام بها مترجمون بحوافز شخصية كترجمة "سعديا" سعيد بن يوسف الفيومي اليهودي للتوراة إلى العربية في القرن الثالث الهجري، كما ترجم أسفار أنبياء اليهود إلى العربية. وأنجزت ترجمات عربية كاملة للإنجيل في هذا العصر نفسه رجع إليها علماء المسلمين، الذين كتبوا في الملل والنحل كالشهرستاني وابن حزم وغيرهما^(٤٣).

وعلى هذه الصورة صارت الترجمة حرفة لها متطلباتها وحرفيوها ومطائنها، كما صارت في الوقت نفسه جزءاً من خطة الدولة ومشروعاتها "وبرامجها: للإشراف على تطوير الحركة العلمية وتنظيمها، ولهذا رُصدت الأموال، وأنشئت المراكز والدور، وكُلِّف المتخصصون والخبراء التماس الكتب العلمية وإحضارها بغية نقلها إلى العربية.

وبهذا العمل العظيم أوجد العرب سبلاً متحضرة للتقارب بين الثقافات والشعوب، والتفتوا إلى لون جديد من الاهتمام وجّه حياتهم وجهة لم تعرفها من قبل فغير جانباً من مسارها وطبيعتها.

وكان لتلك المواجهة بين العربية واللغات المجاورة كالفارسية واليونانية والهندية والسريانية، بعض الآثار والمشكلات. وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين:

"ولما كانت الترجمة أحد مفاتيح مغالق المعرفة، فإنّ دبيب النشاط وسريانه في حركة الترجمة دليل مهم على أنّ الأمة موعودة بنهوض ونشاط مماثلين في حركة التأليف، وهي عملية إبداعية ونمط متقدم من التفكير ولاسيما حين يعبر عنه باللغة الأم^(٤٤).

أي أنّ الاشتغال بالترجمة سيكون من آثاره حفز الهمم وعلى مزيد من التأمّل المعرفي، وعلى المحاكمة والنقد والإضافات والدراسات، وسيلقي بتأثيره تبعات ومهام جديدة على عاتق العربية وأصحابها، وسينعكس ذلك على الثروة اللفظية للعربية: احتياجاً منها، وزيادة فيها، وإرباكاً في منهجيتها المعجمية، وتطوراً في أساليبها، وتنوّعاً في موضوعاتها. والاشتغال بالترجمة سيثير نقاشات وجدلاً واسعين حول شروط الترجمة والمترجم، كمسألة عدم التماثل بين اللغات، ومسألة الترجمة الحرفية، وإعادة التعبير. وانطلاقاً من مثل هذا التحفظ وتأثيراً بالاعتزال.

قال الجاحظ: (ت ٢٥٥هـ-)، بعدم قابلية القرآن الكريم للترجمة لكون الخطأ فيه يأخذ أهمية خاصة^(٤٥).

المهم هنا أن الترجمة إلى العربية أثارت مشكلات متعدّدة ومتنوّعة بتنوّع طبيعة المادة العلمية المترجمة، وتنوّع اللغة المترجم منها.

ولم ينته الجدل حول اقتراح الحلول لتلك المشكلات في حينه، وإنما استمر ذلك ملقياً بظلاله على مؤلفات المتأخرين عن تلك الفترة العباسية. كما نلاحظ في النص الآتي للصفدي (ت ٧٦٤هـ-)، حيث قال:

"وللترجمة في النقل طريقان، أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينقل إلى الأخرى كذلك، حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة لوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات

اليونانية، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب (أي الترجمة) كثير من الألفاظ اليونانية على حالها. الثاني: إن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب (يعني الترجمة) طريق حنين بن اسحاق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها، سواء ساوت الألفاظ أم خالفها. وهذه الطريق أجود^(٤٦).

وفي هذا الكلام اعتراف بأثر حنين بن اسحاق في تاريخ الترجمة عند العرب وإقرار بفضلها، وفيه أيضاً إدراك لصعوبة الترجمة الحرفية ولعدم أطراد وجود المقابل الدقيق في المفردات، وانطلاقاً من ذلك استملح فكرة الترجمة بالمعنى في محاولة لتجاوز العقبات. ولم يفته أن يعرض لخصائص اللغات في التراكيب وأنظمة الجمل والمجازات الكثيرة.

ولا يغيب عن المتأمل في أمثال هذه الآراء والمناقشات أن يستخلص حقيقة لم تقل بكلام صريح وهي حرص المترجمين على الأمانة العلمية كما يلحظ في إلحاحهم على فكرة ترجمة "المقابل" الأجنبي، ترجمة "مجرد اللفظ"، كما عبر ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ^(٤٧).

ومع الترجمة استنفر اللغويون لصون العربية من هجمة الدخيل أو المعرب في الوقت الذي سعى فيه بعضهم إلى سنّ الأحكام التي من شأنها إخضاع هذا الدخيل لقواعد العربية وسننها، وإلى وضع البدائل الصوتية للأحرف الأجنبية، التي لم تألفها العادات الصوتية العربية عند تعريبها، كالحرفين (P) و (V) في مثل كلمة "بهلفان" Pahlavan الفارسية (بهلوان)، وكالحرف كك الذي يلفظ كالجيم القاهرية (G) ... إلخ

وألمح كتاب سيرة الأعلام و"التراجم" إلى مكان النقلة من اللغة في هذا المجال، فكان حديثهم نوع من التقويم، أو الحكم اللغوي الخالص، كقولهم: فلان رديء النقل، أو جيده، أو فصيح اللسان، أو أَلَكَنَ اللسان، أو يُصَحِّح له.. كما مرّ في الصفحات السابقة. وهؤلاء كانوا يمثلون دعاة النقاء اللغوي.

وفرزت قضية المصطلح العلمي عند الترجمة جملة من المظاهر اللغوية؛ فمن جهة اعتنى المعجم العربي بمئات المصطلحات، في العلوم التطبيقية والإنسانية، وفي الآداب والفنون وآلة العيش والمسميات الجديدة.. ومن جهة ثانية تعزّزت الظاهرة العلمية والدقة في المادة اللغوية العربية، مما طبع لغتنا بطابع جديد مغاير لما كانت عليه ولو بقدر قليل. ومن جهة ثالثة نشط اللغويون للبحث والتنقيب عن المصطلحات الموافقة لما يترجم مما أفضى أيضاً إلى شيء من الفضول اللغوي بمحاولة معرفة اللغات الأخرى والوقوف على خصائصها. كما فتح صفحة، أو وضع نواة لما اصطلاح على تسمية بعد ذلك: "المقارنات اللغوية Comparative Linguistics". وشاع في القوم مزيد من التدبر والتأمل وإعادة الكثير من الكلمات المهجورة أو المنسية^(٤٨).. كل ذلك بغية توفير الذخيرة اللغوية الكافية لإنجاح حركة الترجمة.

أما ما اعتري العربية في هذه المرحلة من تاريخها فيتمثل في ما أشاعته الترجمة فيها من جنوح نحو العلمية، ومن طغيان أساليب التعبير المعيارية المحسوبة في إحكام، وربما الجافة، في مقابل أساليب التعبير الشعري المشبعة بالغنائية والإيقاع، أو المثقلة بالمحسنات اللفظية، أو المزخرفة بالصور الشعرية وبالتشبيهات والكنائيات والاستعارات وغير ذلك من ألوان البيان التي تتلون بها الفنون الأدبية. وفي الوقت نفسه أسبغت الترجمة العربية لونا من لغة الإدارة والحكم، أو من لغة الحياة العملية، ومن لغة الفكر والمنطق والجدل بعد تعرّف علماء الإسلام آراء المدرسة الأيونية، والمدرسة الإبلية، وآراء فيثاغورث والسوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأرسطو.. كما عرفوا آراء أفلوطين وأطلقوا عليه اسم الشيخ اليوناني^(٤٩).

وفوق هذا وذاك فقد أصابت الترجمة بنيان العربية بشيء من الوهن والكزازة عندما تولى الترجمة إليها فريق من الأعاجم، الذين كان تحصيلهم العربية صناعة، فلم يبلغوا من الفصاحة فيها مبلغ أصحابها الذين تشرّبوها مع لبان الأمهات. وما تركه هؤلاء من آثار مترجمة تتأقلمت الألسنة والأيدي فسرى شيء منه إلى فصاحة العرب الخالص، مما جعل فريق البيان اللغوي يخبو قليلاً، والسلامة اللغوية يعتورها بعض الترخيص والتساهل في مراعاة القواعد والأصول.

ولا معدى عن الإشارة هنا إلى أن حركة الترجمة، ولاسيما في العصر العباسي، كانت امتحاناً حقيقياً لأصالة العربية ولمقدرتها على استيعاب العلوم الجديدة الوافدة وتمثّلها وإيفائها حقها وحاجتها من المادة اللغوية التي تطلبتها المصطلحات والمسميات. كما كانت امتحاناً لها في مواجهة اللغات العريقة المجاورة، وأحياناً في صراعها مع تلك اللغات. ولقد انتصرت في هذه المواجهة التي زادت تماسكاً ومنعة، وهياً لها ذلك سبيلاً لا حبالاً إلى المزيد من القوة والانتشار في الآفاق، مع أنها كانت في موقف الآخذ أو المتلقي، وأوصلت ما أخذته واضحاً وبأمانة إلى أوروبا حين راحت تترجم هذا التراث الغزير عن العربية في القرون اللاحقة.

الحواشي والإحالات

- ١- انظر: في أصول النحو: ٥٩ لسعيد الأفغاني، ط. جامعة دمشق ١٣٨٣هـ —
١٩٦٤م.
- ٢- طبقات فحول الشعراء: ٢٢ لمحمد بن سلام الجمحي. بعناية محمود محمد شاكر،
دار المعارف بمصر ١٩٥٢.
- ٣- انظر: الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية: ٤، (كتيب صادر عن دار مجلة
الفصل بالملكة العربية السعودية)، العدد ٢٣٩ لعام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٤- الفهرست لابن النديم: ٣٠٣، بعناية الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٥- انظر: طبقات الأطباء والحكماء: ٦١ لأبي داود سليمان بن حسان الأندلسي
المعروف بابن جُلجل (ألف سنة ٣٧٧هـ)، تحقيق فؤاد سيد، ط. مؤسسة الرسالة،
بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٦- انظر: إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن
القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ)، ص ٢١٣، ط. مكتبة
المتنبي، القاهرة، د. ت. ويكتب اسم القس: أهرون.
- ٧- انظر: عبقرية الحضارة العربية: ١١ المجموعة من المؤلفين الغربيين. ترجمة
الغربيين، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق ١٩٨٢.
- ٨- وانظر: مروج الذهب للمسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت
٣٤٦هـ)، ص ١/٢٩١، (طبعة بولاق-القاهرة ١٢٨٣هـ).

- ٩- الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية: ١٥ (مرجع سابق).
- ١٠- إخبار العلماء: ١٤٨-١٤٩، (مرجع سابق).
- ١١- نفسه: ١٧٧، ويقال إن اسم المترجم ابراهيم بن حبيب الغزاري، وليس "محمد".
- ١٢- بلغ عدد من ذكرهم نحو ستين مترجماً، انظر: الفهرست: ٣٠٢-٣٠٣.
- ١٣- الفهرست: ٣٥٨، وطبقات الأطباء لابن جليل: ٦٤.
- ١٤- إخبار العلماء: ٢٤٨-٢٤٩، وانظر: أعلام الحضارة الإسلامية لزهير حميدان، المجلد الأول: ٥٧٧، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥، وطبقات الأطباء والحكماء: ٦٧.
- ١٥- إخبار العلماء: ١٦٨-١٦٩. (مرجع سابق).
- ١٦- قال محقق كتاب "طبقات الأطباء" لابن جليل: "وابن جليل أول من ذكر ذلك (أي أن الرشيد قلده ترجمة الكتب)، ومع ذلك فإن كتب التراجم على أن ابن ماسويه دخل بغداد في زمن المأمون وخدمه وخدم المعتصم والواثق والمتوكل إلى أن مات في عصره. أما الرواية عن معاصرته للرشيد فيتفرد بها ابن جليل. كما أن فتح أنقرة وعمورية (المذكورتين في ترجمته هنا) كان في زمن المعتصم سنة ٢٢٣هـ، وهذا يؤكد أن يوحنا لم يتصل بالرشيد. انظر: طبقات الأطباء: ٦٥.
- ١٧- إخبار العلماء: ٢٤٨-٢٤٩. (مرجع سابق).
- ١٨- جعله المأمون رئيساً لبيت الحكمة سنة ٢١٥هـ، انظر: أعلام الحضارة الإسلامية، المجلد الثاني، ص ٥٦٩.

- ١٩- الفهرست، ٣٥٧. (مرجع سابق).
- ٢٠- العباد (بكسر العين): قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يسموا بالعبيد، وقالوا: نحن العباد والنسب إليه عبادي كأصاري (بالجمع)، نزلوا بالحيرة. ومنهم الشاعر عدي بن زيد العبادي. وتوهم بعضهم فأثبته خطأ بفتح العين وتشديد الباء. انظر: لسان العرب: عبد.
- ٢١- في "طبقات الأطباء"، ص ٦٨، "كان فصيحاً باللسان اليوناني جداً، بارعاً في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين.
- ٢٢- يظهر القفطي واهم في هذا، لأن الخليل بن أحمد توفي سنة ١٧٥هـ، أي قبل ولادة حنين، وشاركه في الوهم النقول عن ابن ججل في "طبقات الأطباء" غير واحد؛ إلا صاعد الأندلسي الذي عَقَبَ عليه بقوله: "ولم يكن الخليل بن أحمد بأرض فارس، وإنما كان بالبصرة وتوفي سنة سبعين ومئة... فانظر؟!". ووهم محقق طبقات الأطباء أيضاً فأثبت من كلام خطأ طباعي. والراجح أن الخليل توفي سنة ١٧٥هـ، وانظر: طبقات الأطباء، ص ٦٨.
- ٢٣- ويكتب "اسطفين" وابن "باسيل"، وهو أحد الذين اشتهروا بالترجمة إلى العربية، ويقول عليه ابن أبي أصيبعة: "كان يقارب حنين بن اسحاق في النقل، إلا أن عبارة حنين أفصح وأحلى". أما موسى بن خالد الترجماني فيقول عليه: "كان لا يصل إلى درجة حنين أو يقرب منها"، عن طبقات الأطباء، ٧٠-٧١ (وانظر الهوامش).
- ٢٤- إخبار العلماء: ١١٧-١١٨، وطبقات الأطباء، ٦٩.
- ٢٥- انظر: الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية، ٢٧، حيث ذكرت قائمة لمؤلفاته أو مترجماته التي عثر عليها وتم تحقيقها.

٢٦- انظر: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، المجلد الأول، الصفحات ٤١٥-٤٢٣.

٢٧- أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ٤٠٦-٤٠٧، وانظر ثمة مصادر ترجمته، ص ٤٢٣-٤٢٦.

٢٨- الفهرست، ٣٥٩، وإخبار العلماء، ١١٧-١١٨، وانظر: تاريخ الطب العربي، ٦-٩، للدكتور سليمان قطاية، باريس ١٩٨٢، وحبيش هذا هو حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بحبيش الأعمش، واشتهر بالطب والترجمة أما ابنه فهو يعقوب بن اسحاق بن حنين (ت ٢٩٨هـ)، واشتهر بالترجمة وأجادهها، وهو من أوائل من ألفوا في تراجم الأطباء كتاباً، وانظر: طبقات الأطباء، ص ٦٩، وأعلام الحضارة، المجلد الأول، ١٦١- و ٢٩٢.

٢٩- عبقرية الحضارة العربية، ١١١-١١٢ (مرجع سابق).

٣٠- نفسه، ٢٤٠-٢٤٧، وطبقات الأطباء، ٧٣.

٣١- الفهرست، ٣٣٣، وإخبار العلماء، ٧٧، وأعلام الحضارة العربية الإسلامية، ١٨٩-١٩٠، وانظر ثمة مصادر ترجمته ص ٢١١.

٣٢- انظر: الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية، ٣٠ (مرجع سابق).

٣٣- إخبار العلماء، ١٣٠-١٣٣.

٣٤- السابق، ٢٦٧.

٣٥- طبقات الأطباء، ٧٦.

٣٦- السابق، ٧٦ (هوامش التحقيق).

٣٧- وانظر: الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية، ٣١.

- ٣٨- إخبار العلماء، ١٧٣.
- ٣٩- نفسه، ٢٣٧.
- ٤٠- أعلام الحضارة، المجلد الثاني، ١٧٥-١٧٦.
- ٤١- يمكن الرجوع إلى فهرست ابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة للوقوف على الكثير من التفصيلات في هذا الموضوع، وانظر مجلة "الفصل" السعودية، العدد ٨٧، ص ١٢٤-١٢٥.
- ٤٢- انظر: الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية، ٢٢.
- ٤٣- المرجع السابق، ص ٤.
- ٤٤- انظر مجلة "الفصل" السعودية، العدد ٢٣٩، ص ٦٦.
- ٤٥- الفيث المسجم في شرح لامية العجم، ١/٧٩ لصالح الدين خليل بن أبيك الصفدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.
- ٤٦- انظر: "تقص المنطق"، ٩٧، تحقيق محمد بن عبد الرزاق حمزة، وسليمان الصنيع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥١.
- ٤٧- يذكر هنا على سبيل المثال ما وضعه حنين بن اسحاق من مصطلحات علمية خاصة بالعين نحو: الملتحمة والقرنية والصلبة، والمشيمية، والشبكية معطياً المعنى الدقيق للمقابل اليوناني، وانظر: أعلام الحضارة، ٤٠٧.
- ٤٨- انظر: الفلسفة الإسلامية، ١٤-١٥، للدكتور عاطف العراقي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٨.